أهليل قوراره

إعداد وترجمة :أ. عمر بلخير(ج .تيزي وزو)

سأحاول من خلال هذا البحث، رغم انعدام خطة للتحليل، أن أعتمد على تجربتي الخاصة، وسأخلط بصفة عفوية بين الدراسة الآنية والدراسة الزمانية، لأنه من الصعب الوقوف على أحد هذين المنهجين دون الآخر لدراسة هذا النوع من الظواهر.

وبما أنني لست عالما في الأنثروبولوجيا ولا في اللسانيات، سأحاول أن أضع منطلقات قد تبدو عفوية للوهلة الأولى، وسأقوم بتدعيم هذه المنطلقات بأقوال وأدلة ثابتة لبعض المختصين في الميدان.

يظهر أن هذا النوع من الفنون، عكس الفنون الأخرى الموجودة في المغرب، قد هبت عليه ريح الإهمال والنسيان، وأعتقد أنه لم تكن هناك دراسة أدبية أو أنثروبولوجية أجريت في هذا الموضوع، باستثناء مقال نشر في المجلة الأسياوية عام 1964، ولم يكن ما جاء فيها كاف شاف، ويظهر أن صاحب المقال لم يقطن في القرارة إلا مدة يسيرة. ولا نجد أية معلومة عن لغة القرارة : الزناتية، باستثناء بعض المعلومات القليلة للمستشرق روني باسي R. Basset، التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، والسبب في ذلك واضح، لأن الدراسات الأدبية و الإثنولوجية للمرحلة الاستعمارية كانت تقام بصفة مركزة على الشعوب التي واجهت الاستعمار بشدة مثل منطقة القبائل و الأوراس... إلا أن سكان القرارة لم تكن وضعيتهم الاقتصادية تسمح لهم بأن يقاوموا تسرب جيوش الاحتلال الفرنسي.

إن الوصف الذي وضعته للأهليل، إضافة إلى المشاكل التي واجهتها أثناء القيام بهذه الدراسة، مثلت له بيانيا بثلاثة محاور :

- طبيعة الأهليل
- أصله
- وظيفته

إنه من العسير ترجمة لفظة "أهليل"، فهو لا يمثل نوعا موسيقيا ولا أدبا ولا حفلة راقصة، فهو كل هذه الفنون مجتمعة، إنه نوع من الفنون المتكاملة، لذلك فالطريقة المثلى لتعيينه، هو تركه على ما هو عليه في الأصل في اللغة الزناتية : أهليل، فهو عبارة عن احتفال يشمل الرقص والغناء في الوقت نفسه، وهو أيضا عائلي و شعبي، وغالبا نجد هذه الظاهرة في الحفلات الدينية والعائلية، والأهليل احتفال ليلي خاص بالرجال (حاليا نلاحظ مشاركة نساء من سن معين)، ويجري الاحتفال انطلاقا من الحادي عشرة ليلا إلى الفجر. يقف الرجال كتفا إلى كتف، يشكلون حلقة التوائية، وداخل هذه الحلقة نجد بعض الشخصيات : تتكون مجموعة منها من ثلاثة أشخاص : المغني Abecniw، و هو الشخصية الرئيسية المتمثلة في الشاعر الذي يتلو أبيات الأهليل) و عازف الناي bab n'temja، و قارع الطبلة (الدربوكة) bab n qellal. إضافة إلى هذه الشخصيات، نجد داخل الحلقة مسير اللعبة وهو الذي يوحي على الجوقة بالأشكال التي يقومون بها (مثل الانحناء إلى الأمام ثم العودة إلى الوراء، و تسمى هذه الحركة Arezzi، و أمامه راقصون يقومون بنفس الحركة (بالاتجاه المعاكس لعقارب الساعة) و لكن بصفة تراجعية.

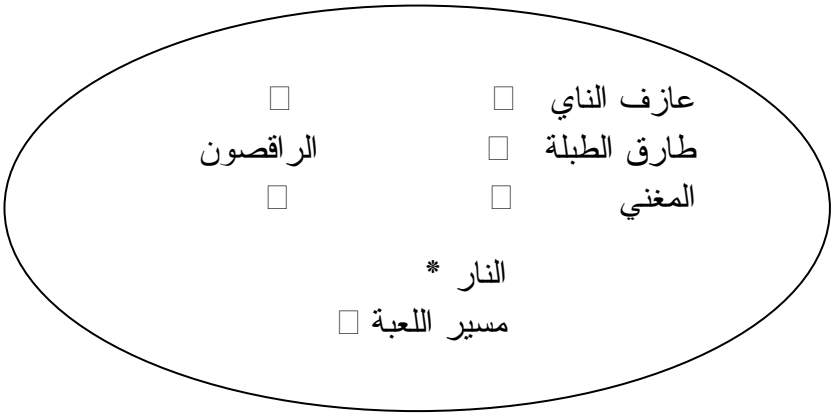

وهذا الاحتفال مركب من تتابع الأهليلات، واحد تلو الآخر لبعض الدقائق، ويحمل كل واحد منها أسماء، والعارفون باللعبة يقسمون الليل إلى ثلاثة أقسام :

- الأهليلات الأوائل، و يدعون Lmserreh (كلمة عربية تعني المتراخ).
- تليها Awgrut (كلمة زناتية)
- الأخير الذي يدعى ttra

Awgrutفالأولى مفتوحة للجميع، والأهليل الحقيقي يبدأ من القسم الثاني
ttra
Awgrut
refrain
Polyphonies
tagerrabt
tandiht

Awgrut أما القسم الثالث فهو مختص بالعارفين.

إن افتتاحية الأهليل تكون من قبل العازف الذي يعطي إشارة يشير بها إلى نوع الأهليل، وترد الجوقة على ذلك بذكر اسم الأهليل بلازمته refrain وفي هذه الفترة يتدخل المغني بإنشاء اللازمة،
وتكررها الجوقة قبل أن يُنهي المغني مقطعه. وهذا ما يعطي الأغنية بعدا تعدديا في الأصوات Polyphonies لبعض ثوان.

يدوم هذا الوضع بضع دقائق، يختمها المغني بنوتة موسيقية عادة ما تشير إلى نهاية الأهليل. وتشرع الجوقة في تكرار نفس المقطع اللغوي والموسيقي، وهو مقطع قصير، والمغني يصدر صوتا مرتفعا وتقف الجوقة فجأة في هذه المرحلة الأخيرة للأهليل وتدعى tandiht وهو يمثل القفل.

وبعد فترة وجيزة، يبدأ أهليل آخر، والعارفون به يعرفون ترتيب الأهليلات.

و يظهر أنه لكل قسم من الليل أهليل أو أهليلات مناسبة.

أما اللغة المستعملة في الإنشاء فهي الزناتية مع بعض المقاطع العربية، وهي عربية فصحى منحرفة، تستعمل في الزوايا، إنها عربية بدو جنوب وهران.

وقد يتناول الأهليل ثلاثة أغراض متعددة :

الدين وكل ما يتعلق بالأولياء و الشرفاء، فيليه **الحب** ثم **الحياة اليومية**، إذ قد يندمجان في أهليل واحد في أحيان كثيرة : فالشاعر يشرع في ذكر الله ورسوله (ص) والأولياء الصالحين، ثم ينتقل بصفة مفاجئة إلى ذكر النساء و جمالهن... وهذا ما يدعى **بالإيحاء المركب**.

إن دراسة هذه النصوص تطرح علينا، في الوقت نفسه، مشاكل عديدة وتفيدنا بمعلومات متناقضة أو متطابقة للمنطلقات المختلفة.

طبيعـــة الأهليـــل

– يبدو الأهليل دينيا ودنيويا في الآن ذاته، وشعبيا و معرفيا كذلك.

فيما يتعلق بالجانب الأول، فيظهر لنا استنادا إلى نصوص في الميدان عند القرارين، أنه ذو طبيعة مقدسة، إذ نجده في معظم المناسبات الدينية كإحياء ذكرى أولياء القرارة؛ والمقاطع ذات الصبغة الدينية تظهر بكثرة في الأهليل.

إضافة إلى أن الإطار الذي يتجلى عليه الأهليل غالبا ما يكون ذو طابع قدسي، وينتهي دائما بعبارة دينية باللغة العربية... وتبدو الطقوس واضحة في الاحتفال كتقسيم الليل إلى ثلاثة أقسام، وارتداء الجوقة لملابس متشابهة لملابس المغني الذي يعطى اسم الأهليل.

نلاحظ، أحيانا، توجه الأهليل نحو تثبيت الصفة الدنيوية، فالشرفاء والمرابطون لا يحضرون الاحتفال، ولا يشاركون في إنشاء بعض الأبيات الشعرية، كذلك الأفراد المتدينون، ويصاحب الاحتفال بعض النشاطات غير اللائقة كتناول الكيف (النبات المخدر)، وشيوع ظاهرة الاختلاط – وهذا منذ وقت قريب.

وقد نجد صفة الدنيوية وبعض مظاهرها في نوع متشابه يدعى tagerrabt إذ يمكننا أن نستنتج بعض الفوارق منها : أن الأول يكون فيه الممثلون واقفين خارجا، وهو احتفال للرجال

و ذو صبغة جدية، أما الثاني فيكون فيه الناس جالسين في بيوتهم، وهو حفل عائلي مختلط ذوت صبغة دنيوية.

وغالبا ما تكون الأنغام متشابهة بين المظهرين، هناك إذن وحدة أساسية بين النوعين.

ثم نتساءل : هل الأهليل ذو لحن شعبي أو معرفي مثقف ؟

أ- **المظهر الشعبي:** هناك مجموعة من الأغراض تمس بصفة مباشرة الحياة اليومية، إذ نجد بعض المقاطع تصف لنا أنواعا من التمور، وإرشادات لزرع أي نوع من هذه الأنواع، ونجد أيضا بعض الأمثال...

ب- المظهر المعرفي: استنتج Pierre Augier من خلال دراسته لموسيقى القرارة أنها فريدة من نوعها لأنها متعددة الأنغام والأصوات، وما نلاحظه فيما يتعلق بالجانب الشعري اتجاهه نحو تثبيت الاستنتاج السابق. ومن الناحية اللسانية نلاحظ أن جميع الألفاظ التي تحدد أسماء الآلات الموسيقية و العازفين و أهم مراحل الأهليل... كلها ألفاظ زناتية، و هي مصطلحات دقيقة مثلا : أسماء أنواع الأهليل : Lahla, Tezru, Tahuli كلها أسماء بربرية، و baccao محتمل أن تكون مشتقة من إحدى لغات إفريقيا السوداء.

ومن الناحية الموسيقية، إذا توجهنا نحو مناطق الصحراء، نلاحظ أن موسيقى التوارق وبعض القبائل الموريتانية (و أهلها يتكلمون اللغة العربية المسماة : الحسنية) تحتوي على أسماء الآلات وتنوعات موسيقية من أصل بربري. و يغلب الظن أنه في الجنوب العربي للمغرب تمتد منطقة تكون فيها الموسيقى غنية وواسعة الانتشار. وهذا دليل آخر على المظهر المعرفي للأهليل، وهي المدة الطويلة التي يقضيها المغني والعازفون في التدرب على إتقان الغناء والعزف. فعازف المزمار الوحيد الذي التقيناه في القرارة لم يحدثنا إلا قليلا عن فنه الذي قضى فيه وقتاً طويلا ليتعلمه ويتقنه. وقد أكد لنا أنه من الصعب تعلم العزف على المزمار القراري، عكس المزمار اليدوي، لأنه ذو قواعد معقدة و صعبة الاكتساب.

يبدو مفاجئاً ورود عدد مهم من المعلومات ذات الطابع المعرفي بلغة الزوايا في بعض نصوص الأهليل، كأن يشار لأشهر الفقهاء كابن عشير والبغدادي وبعض الشعراء مثل الحاج

مصيب و سيدي بوجمعة التلمساني، وهذا ما يجعلني أقول بالنوع العربي المنحرف عن العربي الكلاسيكي. و نجد مثلا بعض المقاطع التي يبدو تلاعب الفكر فيها نحو:

مم يتكون واحد واثنان و ثلاثة...واثنا عشر.

ورغم صعوبة الوضعية الاقتصادية والتواصل الشفهي، فإن هذا الأدب الممارس من قبل جميع القراريين يحتوي على موسيقى منتظمة وأصيلة، مهما اختلفت أصولها ومنابعها.

آلأصل والتطور المحتمل للأهليل

عندما حاولت التعريف بالأهليل، لم يكن باستطاعتي الاستناد إلى التقاليد الشفوية ولا إلى النصوص المكتوبة، ولكن أعتقد أن التقاليد قبل أن تصل إلينا عملت فيها أيدي السكان حسب إرادتهم لكي يصنعوا أصلا جديدا يتناسب واحتياجاتهم الاجتماعية. فهم يقولون إن الشرفاء هم واضعو الأهليل. إلا أن هذا الرأي غير صحيح. و لكي نتأكد من ذلك، علينا بقراءة بعض النصوص (ما عدا المقاطع التي تتحدث عن الشرفاء...)، نجد أنه من المستحيل أن تكون من وضع الشرفاء والمرابطين. و نحن نذكر أن هؤلاء يرفضون المشاركة في الاحتفال، فالمحتوى يدلنا على عدم وضع شرفاء القرارة. إن الظاهرة الشريفية تكتسي أهمية أكبر في المغرب. لم يكن الفرد من القصر Ksar مهما بلغ سنه أن تكون له عائلة من الشرفاء، والذين يتمتعون بالرفاه الاقتصادي، وهم يملكون كل الأراضي و كمية كبيرة من مياه المنطقة. و يقول القراريون أن أولائك الشرفاء يحتفظون على مدونات للأهليل و خاصة في قصر يدعى شاروين، و الواقع على مسافة ستين كليلومترا من تيميمون.

ومن الناحية التاريخية، فإن الشرفاء لم يصلوا إلى القرارة إلا في وقت متأخر ومن المحتمل أنه لا يتجاوز القرن الخامس عشر، و بعض دراسات الأنساب تذهب بنا إلى القرن الرابع عشر.

وقد نجد بعض الدلائل تذهب بنا إلى تاريخ أقدم من هذا. فهناك أدوار ومقطوعات كثيرة تستحضر لنا حضارة مدنية وتجارية متطورة جدا، وأوصافا دقيقة لقصور رائعة و جواهر جميلة وروائح كثيرة، وكل واحدة منها تحمل إسما لها... وإذا قارنا بين ما جاء في المقاطع

والحياة البائسة للسكان نستنتج أن هذه النصوص ترجع إلى فترة غير التي هي عليه الآن أو في القرون المتأخرة. هذه المقاطع تعكس لنا حضارة مزدهرة، خاصة أنه في القرون الوسطى كانت القرارة منطقة استراتيجية وملتقى التجار بين بلدان الشمال والبلدان الإفريقية.

فمن جهة نجد تجارة الرقيق والمتفجرات...و من جهة أخرى المواد الحرفية والمواد التي وصلت من أوروبا عبر الموانئ المغربية والتي تؤخذ في قوافل عبر الصحراء.

و يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك في أصل الأهليل، إذ نجد بعض العناصر الأصيلة كبقايا الديانة اليهودية مثل عنوان إحدى الأهليلات : سلامو وعندما نسأل السكان عن أصل هذه الكلمة يقولون أن معناها السلام.

فهناك على سبيل المثال بيتان لأهليل يقول فيهما الشاعر.

سلامو انقذني
اعطف علي

هناك مقاطع أخرى يستحضر فيها طقسا يسمى Tamzguida، و هو معبد للصلاة، ويطلق عليه السكان أسم الكعبة. و لكن الوصف الذي وجدناه في الأهليل لا يشبه وصف الكعبة. فهو، في رأيي، يشبه أكثر معبد سليمان المذكور في الإنجيل. ويمكننا أن نعطي دلائل عديدة وآثارا عن اليهودية في الأهليل.

إذا ما توجهنا صوب تاريخ الغرب الوهراني، سنجد أنه كانت هناك جماعة من اليهود (عكس التي وجدت في الشمال) كانت قد لبثت مدة طويلة في منطقة يوجد مركزها في تمنطيط في منطقة التوات. وفي نهاية القرن (15) و بالضبط في 1492 عند سقوط غرناطة، جاء مصلح من الشمال وهو عبد الكريم المغيلي لنشر مبادئ الدين الصحيحة فأباد الجماعة اليهودية من المنطقة وأجبرها على اعتناق الإسلام. في تيميمون يوجد حاليا حي يدعى مهاجرة (المهاجرون)، وساكنوها يؤكدون أنهم من أحفاد الجماعة اليهودية التي اعتنقت الإسلام.

ومن هنا نستنتج أن بعض المقاطع تعود إلى فترة أقدم من فترة القرون المزدهرة، وهي الفترة التي كانت فيها الديانة اليهودية منتشرة في واحات الجنوب.

ونستطيع، في الأخير، أن نذهب إلى أبعد من ذلك في القدم، ولكن تجنبنا ذلك لكي لا نبتعد عن الموضوعية في المنطلقات التي وضعناها في بداية البحث.

وإذا أخذنا لفظ أهليل، نجده جغرافيا ولسانيا غير منعزل، فقد يظهر في عدة لغات.

في البربرية

– يوجد في جنوب الصحراء نوع غنائي وشعري في آن واحد يدعى أهلال Ahellal، و بالضبط Ahellal n'mass inaj في منطقة الأهقار.

– وفي الأطلس الأوسط بالمغرب نوع شعري يدعى Ahellal، والشيء الذي يميزه عن الآخرين هو طول نصوصه و صبغته الجدية.

– **في القبائلية:** لفظة إهلالن Ihellalen ، تعني الشباب الذي يغني و يرقص في شهر رمضان لإيقاظ الناس لتناول السحور.

في العربية: التهليل هو تكرار "لا إله إلا الله" عدة مرات، و يستطيع أن يكون الجذر قد عرف قبل مجيء الإسلام.

في العبرية: هالل Hallel : يقصد به الفعلين مدح أو رثى شيئاً أو إنساناً.

فمن المحتمل أن الجذر HLL هو في الوقت ذاته من الفصيلة السامية – الحامية و هو يحمل معنى التقديس. كل هذا أدى بي إلى وضع تلك المنطلقات بالنسبة لأصل الأهليل في القرارة. فقد يكون موجودا في فترة قديمة في هذه الصحراء. وقد وضع لتحديد ظاهرة دينية كانت تسمى أهليل، عندما وصل البربر اليهود إلى هذه المنطقة حملوا معهم تركيبة يهودية، وهذا النوع قد أخذه الشرفاء بعد اختفاء اليهودية، عندما رأوا الأهمية التي تكتسبها عند الشعب، فقرروا عدم حذفه بصفة نهائية. وهذا عكس التوات التي اختفى فيها الأهليل والبربرية بصفة نهائية.

وظيفة الأهليل :

والآن نستطيع أن نتساءل عن أسباب بقاء هذا الفن لمدة قرون رغم التحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفتها القرارة.

الملاحظة الأولى التي يمكن صياغتها هي الأهمية الكبرى التي يكتسبها هذا الفن في الحياة اليومية للقرارة. فقد يقام الأهليل لأدنى مناسبة. ويظهر أن هذه الممارسة يعتبرها السكان وسيلة للترويح عن النفس جراء اليأس الذي أحاط بهم. فهم يقضون طيلة اليوم في حقولهم أو في بناء قنوات صرف المياه. وفي المساء يتغير المظهر بصفة مذهلة : إنه الاحتفال. فهم لا يبالون بما يحدث في الخارج، ويتواجدون في حلقة مفرغة ومفتوحة في آن واحد. وفي هذه الحلقة الآمنة يتخيلون عالما عجيبا. فالأهليل هنا يلعب دور الاستشفاء.

ونلاحظ أيضا أن الإيديولوجية التي تحتويها النصوص غير عادلة. بحيث تعطي الأولوية للشرفاء والأغنياء والفقهاء. هناك نوع من التناقض بين الخطاب ووضع المستضعفين الذين يتغنون بالنصوص، فنستشف من هذه النصوص الشكوى والمعاناة :

إن كنت ابن عبد، فإنك غزال

وإن كانت لدينا أموال، فحبنا واحد.

وفوق كل هذا، فإننا متساوون أمام الله عند الموت.

هذا الترتيب للأشياء غير مقبول ومحتمل عند الله لأنه هو الذي أمرنا به.

والقرارة لا يفصلون بين الإيديولوجية الشريفية والمرابطية والتفكير الإسلامي الصحيح، والأهليل يقوم على الرغبة في إعادة الأمور إلى ما هي عليه في الأصل وبحث حقيقة تاريخية معينة. يقول الشاعر في إحدى هذه المقاطع :

رأسي يؤلمني، ولكنني لا أشبع من الأهليل

يدي تؤلمني ولكنني لا أشبع من الأهليل

قدمي تؤلمني ولكنني لا أشبع من الأهليل.

والبيت الرابع يقترح حلولا مغايرة للترجمة الأصلية فيقول :

اليوم الذي ألقاك فيه أيها الرسول لن أشبع من الأهليل

وهو بيت آخر من أحد الشرفاء

اليوم الذي ألقاك أيها الرسول، ذلك اليوم سأكون قد شبعت من الأهليل

بعض نصوص الأهليل :

قلت لحبيبتي
لقد جعلتيني أعمى
من السكر والعسل
لقد قامت وارتحلت
ولكنها عادت
إنها تنتظر
لكنني لست حبيبا
اذهبي واتركيني
رغم أنني ما زلت مرتبطا
بحبيبتي
وكل ما اعطيتك إياه
سيثقل على قلبك
لا زلت أومن بك
و سأظل أتبعك إلى ما بعد الممات

بسم الله أبدأ كلامي
أطلب من الله الهداية
أقسم بالقرآن
وبكل الكتب
أنه يراني ويراك
ابن أب غني
ساعدني يا حبي
اهدي هذا الشاب إلي
في لحظة الفرح
في هذا العالم الضائع
الذي لا نعرف فيه شيئا عن أنفسنا
أنت تنتظرني و أنا أبكي
كم تعذبت
قمت بزيارة
لحبيبي
وتمنيت لها عاما سعيدا

وطلبت منها : كيف حالك

ولم تجبني

كنت واقفا على الميجور

عاجزا على المشي

لقد أهانتني

لن آخذ بعين الإعتبار

حبي

و لا الإيمان الذي كان نحوك

إلا ما بعد الموت

أيها الغني

لا إله إلا الله

من هو الواحد (أيها الغني)

الله هو الواحد

من هم الإثنين (أيها الغني)

آدم و حواء

فيم توجد الثلاثة ؟

ثلاثة رجال في المعبد

هناك أربعة كتب (سماوية)

فيم توجد خمسة

خمس صلوات

فيم توجد ستة

هناك ستة أيام

فيم توجد سبعة

في سبع سموات

من هم الثمانية

حملة العرش

فيم يوجد تسعة

يوجد تسعة أنواع

المقال الأصلي : دراسة ألقاها الكاتب في ملتقى نظمه مركز البحث في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والإثنوغرافيا (crape)عام 1986.